



مرض طيب . . .

للأستاذ نجيب محفوظ

—

قبل عامين تقضى وياؤ للتيفود في مديرية التربية تفشياً خفيفاً فتك بنفوس الكثيرين ، وصادف ذلك انقضاء بضعة أشهر على تعيين الدكتور زكي أنيس طبيباً بمستشفى طنطا وفتح عيادته الخاصة ، وكان في تلك الأيام يلاقى للشدائد المفضى على كل مبتدىء في فنه أن يلقاها أول عهد بالحياة العملية . فكان ينتظر طويلاً وبعثاً توارد الزوار والمرضى مستوصياً بالصبر والتجمل حتى كاد يلحظه الجزع . فلما تقضى ذلك الرباء الخبيث تضاعف عمله بالمستشفى وشهد نشاطه ومضى يراقب حركة السيارات التي تطوف بالبيوت وتمود محملة بالضحايا بينين كثيرين وعزيمة متوثبة ، وأحس بالرغم من كل شيء بسرور خفي ، وأحيا قلبه الأمل في أن يدعى يوماً لمعالج مصاب من الذين تنقل بهم جوبهم عن الانتقال إلى المستشفيات العامة ، ولم يئسهم تقاطر الناس على كبير الأطباء وبعض الأطباء القدماء بالمدينة وأصنى إلى هاتف تناول ما انفك يهمس لقلبه بأن دوره لا محالة آت .

وصدق أمه ، وإنه ليجلس إلى مكتبه يوماً يقبل صفحات كتاب وتجري عيناه على أسطره جريان الشرود والللال إذ طرق باب كهل يدل منظره الوجيه وزيه الربيع الثمين على أنه من الأعيان؛ ولعله قصد بعد أن يئس من المنور على سواء ، فطلب إليه بلهجة تم على القلب أن يصعبه إلى العاصرية على مسير ربع ساعة بالسيارة . وكان للشاب بعد المدة لثل هذا اللقاء فلم يبد على وجهه أثر مما اضطرب في صدره من الفرح والظفر ، فألقى على القدام نظرة رزينة وقام من فورهِ نفع معطفه الأبيض وارتدى الجاكيت والطربوش وأخذ حقيبته وتقدمه إلى الطريق . والتقى أمام الباب بسيارة نعمة نطق قلبه مرة أخرى وتربث حتى فتح الرجل الباب وقال له «تفضل» وجلساً جنباً إلى جنب وانطلقت بهما للسيارة ، وحافظ على هدوئه ووزائته وصر بأستانه ليتردد ابتسامه خفيفة

تحاول أن تمتلئ شفقيه؛ وكأنه أراد أن يدارى عواطفه فسأل الرجل عن مريضه ، وتكلم الرجل في إسهاب فقال إن المريض ابنه وإنه لم يجاوز العشرين من عمره ، وأنه أحس منذ أيام بتوعك وخور ورغبة عن تناول الطعام ، ثم ارتفعت حرارته واستسلم للرقاد فسأله : «هل حقن بالمصل الراقى؟» فأجاب الرجل بالنفي ، وأعلن عن رجائه الحار ألا يكون للشاب أصيب بالحي الخبيثة ، فصمت للطبيب ملياً يفكر في هذه الأعراض ويزنها بميزان اختباراته وعلمه ، وكانت السيارة في أثناء ذلك تحترق الطريق الزراعى بسرعة للبرق حتى بلغت العاصرية وانطلقت إلى حاراتها الضيقة ثم وقفت أمام دار كبيرة ، فدخلا مساً واحتقبتهما أوجه كثيرة بأعين يقتتل بها الخوف والأمل ، فساوره اللقلق وتلبسه شعوره حين تمرض لأول مريض بدأ به حياته التربوية في قصر للمبنى منذ ثلاثة أعوام ، فاستصرخ قوة إرادته ليضبط بها وجدانه ويجتاز هذه التجربة الجديدة بالنجاح ، وأغضى عن حوله وسدد انتباهه إلى الشاب الراقد بين يديه ، وكشف عليه بناية فائقة وخصه خصاً دقيقاً فترجع لديه أنه مصاب بالتيفود ، وأبدى رأيه في تحفظ وقال إنه ينبغي أن يفحص المريض في اليوم التالي ليستوثق من رأيه ، فلا آمنهم من خوف ولا أقدم الأمل ، وظن أنه ضمن لنفسه أن يتردد على المريض حتى يبلغ به الشفاء بفنه أو يودعه القبر بأمر الله . ثم أخذ حقيبته وأبجه نحو الباب بخطى وثيدة كأنه يريد شيئاً ، فلتحق به والده المريض وهمس في أذنه قائلاً : «تفضل» نطق قلبه لثالث مرة ذلك اليوم ومد يده وهو يقول : «شكراً» فأحس بثلاث قطع من ذات المشرة قروش توضع بها ، ثم جلس في السيارة منفرداً هذه المرة ، وانطلقت به في طريق السودة ؛ وكانت هذه أول مرة يدعى فيها إلى زيارة مريض في بيته ، فالتفت ورضى وأشمل غليونه وراح يدخن بجحالة من السرور لم تخل من اضطراب عصبي فأخذ «أنفاساً» سريعة فتوهج التبغ وسخن للفليون ، ولم يستمر في التدخين طويلاً فوضعه في جيب الجاكيت الأهل وأرسل بناظره خلل زجاج النافذة يشاهد الحقول الممتدة على جانب الطريق للثائرة في الأفق البعيد ، وكانت تنفخ عند الطريق الزراعى بمجدول من الماء ينساب صافياً تستحم فيه أشعة الشمس المائلة للغروب وتنشأ بنور لآلاء بهيج يخطف الأبصار ؛ فاستسلم لسحر الرؤية ، وشمر بتخدير لذيذ ، حتى انبته إلى تغير غريب يسرى في صدره وجسمه فتحوط أفكاره من الخارج إلى الداخل

أول شعور طيب يخالط قلبه منذ قدم طنطا — فصدقت نيته على أن يطلب إلى الدكتور بهجت نقله إلى المستشفى، وربما تمكن من رؤيتها هناك ليودعها إذا اشتد عليه الحال. وقد حن إليها في تلك الساعة حنيناً موجعاً ... وأغض جفنيه هنيئة يلتصم الجمام ويتردد عن قلبه الرساوس والهواجس، ولكن وجدانه الثائر أبى أن يدعه في راحة أو طمأنينة، أو أن يصرفه عن الانشغال الألم بمرضه. ولم يكن دار له بخلاف أن الطبيب يأمن من الأمراض، ومع ذلك أحس بمرارة وسخط وحنق وساءه أن يفتضح مرضه للشارد في أثناء عودته من زورة مريض. أما كان الأجل أن يجزى غير هذا الجزاء ... وتر في نفسه أن اللدوى انتقلت إليه في أثناء قيامه بواجبه في المستشفى بالرغم من حذره ويقظته فتضاعف سخطه وحنقه، وأسى على حياته التي لم يتح له التمتع بها؛ وكان يدفع إلى فكرة الموت دفماً عنيفاً، ويقسر على الاستمراق فيها بقوة شيطانية ... وحدته قلبه الرعيد بأن نهايته هت، فمظف رأسه إلى المرآة وأدام للنظر إلى وجهه، تخيل إليه أنه محقق بالدم الفاسد؛ ولكن كان ما يزال محتفظاً بنضارة الحياة وأثر الصحة الآخذة في الانحلال، فألقى عليه نظرة آسيفة حزينة، كأنما يودع آخر صورة للحياة والصحة عاتقة به ... ثم أدار رأسه قانطاً، وأسلمه القنوط إلى الاستسلام، وأسلمه الاستسلام إلى الاستهانة، ولاذ بها من مخاوفه، وقال لنفسه علام الخوف والدمر؟ الموت آت لا ريب فيه، إن لم يكن لليوم فتناً ... هو النهاية المحترمة على أية حال للهزة الحياة ... وماذا يضيره أن يقصر دوره في هذه الهزة؟ فلعل في قصره اختزالاً لألام مرهقة. على أن تمزيه لم يدم طويلاً ... وألحت على قلبه الآلام مرة أخرى ... فذكر آماله وأطامه في المجد والثروة، وارتحمت على شفتيه لهذه الذكرى ابتسامة مريرة ساخرة ... وشعر بامتصاص يفوق الوصف ... وذكر اللثلاثين قرشاً التي طرب لها فرحاً قبل حين قصير: فازداد امتصاصه، ولمن رزقه القدي يناله من أيدٍ شحيحة، لا تفرط فيه حتى ينزلها المرض، قترأخي عن الضن به، ولمن النظام القوي يجعل سعادة القوم منوطاً ببأساء آخرين ... يالها من مهنة مخيفة، يستمد رجالها حياتهم من النفوس المريضة كالجراثيم سواء بسواء ... وسخر في ذمعه وتشاؤمه من الإنسانية والتضحية والرحمة، تلك الألفاظ الصماء التي حفظها عن ظهر قلب ولم تخرج له في شعور قط ...

فأحس بمسخونة تنشر في أعضائه جميعاً كأن حرارته ارتفعت بشتة، فتملأ في جلسه وحرك رقبته بمنف، ثم لم يحتمل شدتها فخلع طربوشه وفك أزرار الجاكيت وأخرج مندبلاً يروح به على وجهه وهو يعجب أشد العجب لأن الجو كان معتدلاً لطيفاً، واشتدت وطأة المسخونة والتهب جسمه بالحرارة، فحس خديه وجبينه وشعر بثقل في جفنيه ورأسه وضيق في التنفس، وتساءل في حيرة عما أصابه، وخطر له خاطر مخيف: هل يكون مريضاً ... وذكر اتوه الحمى الشيطانية التي تنفك بأهل الديرة فكأ جهنمياً

وكان قد حن نفسه بالمصل الواقي فكيف انتقلت إليه اللدوى ... هل سبقت الميكروبات المصل إلى دمه ... ولفه الدهر، وكان في الحقيقة جباناً رعبديداً شديد الهواجس سرعان ما يستسلم للتشاؤم ويقع فريسة سهلة للمخاوف، فماد يجس خديه وجبينه فوجدتها ساخنة وأحس بجسمه يكاد يلهب التهاباً فاستولى عليه الفزع وارتفعت فرائصه وقال بدهول «يا للويل ... لقد أصبت وانتهيت ...»

وقطعت السيارة مرحلتها وانتهت إلى عيادة الطبيب للشاب — وكانت عيادته ومقامه في شقة واحدة — فتركا على عجل وصعد إلى حجرة نومه واستدعى التبرجي وقال له: «ناد الدكتور ساني بهجت بسرعة وقل له إن أصبت بالتهفود» فجرى الرجل مرتكباً وأخذ الدكتور يخلع ثيابه بيدين مضطربتين وارتدى للبيجامة وارتدى على الفراش في حالة يأس ورعب وغم شديد وقد خيل إليه أن شرايينه ستنفجر من الحرارة. وكان يستحضر في ذاكرته أعراض المرض فلم يصد له به تمت شك في أنه مريض؛ وثبت في وهمه بقوة أن هذا المرض سيختم حياته. كان شديد الجبن متهاقاً الأعصاب فلم يستطع أن يأمل قط في النجاة وبات في يأس عظيم، وظل يعد الدقائق الثقيلة للرهقة ويصيح غاضباً «هيات أن يجد الدكتور في عيادته، وسأجن هنا وحدي ...»

وفي أثناء الانتظار فرغت أفكاره المبتونه إلى القاهرة، إلى أمه، ووجد حاجة شديدة إليها، وإلى وجودها إلى جانبه لتسهر عليه؛ وفكر فعلاً في أن يمت إليها بيزنية، ولكنه لم يقبل هذه الفكرة بسهولة، وأشفق من إرهابها وإزعاج حياة والده وإخوته الصغار وربما مرضها للخطر أيضاً — وكان هذا

فهو لم يشمر أبداً لخير المجد والثروة ، ولم يتصور ساعة أنه يبلنهما
بغير معونة المرض ... فعبده وهو لا يدري ، ونصبه أهلكا
يقدم له للفرايين البشرية كمثل القدم ، حتى سقط هو أخيراً
قرباناً له ، فأى حياة هذه ؟ ... وذكر أيضاً في هديته وتشاؤمه
قروياً بسيطاً عرض له في العيادة الخارجية اقصر العيني ، وكان
يريد أن يكشف على حلقه ، فأمره أن يفتح فمه ... وكان كلما
أدنى منه المجهز يرتجف الرجل للساذج ويقلق فمه ، وتكرر ذلك
منه حتى اشتد به الحنق ، وكان مرهق الأعصاب من كثرة
العمل ، فضرب جبين للقرى بالمجهز ، فشجبه وأسأل دمه ...
وقد أسف لذلك حقاً ولكن أسفه لم يخفف عن الرجل شيئاً ...
وذكرته هذه الحادثة بما يقع خلف جدران قصر العيني من أعمال
القسوة التي تنزع من هولها النفوس البشرية ، فذكر أنه تكاسل
صرة عن إجراء عملية لمريض ، لأنه كان أجرى هذه العملية
صرات عديدة بنجاح ، فلم يشغرها بحاجة إلى تمرين جديد . واسودت
الدينا في عيني ، وعاتت نفسه كل شيء في تلك الساعة الخبيثة
ثم سمع وقع أقدام في الردهة وصوت التمرجي يحدث
الدكتور ، فتمشت في أعصابه موجة نشاط ونسي وساوسه ،
وفزع إلى القامد بأمل جديد ، ودعا ربه بصوت مهدهج قائلاً :
« آه يا رب ، خذ بيدي ا هبني حياتي صرة ثانية ، أهب للناس
أشرف ما في نفسي حتى الموت »

وما انتهى من دعائه حتى برز الدكتور بهجت من باب
الحجرة وهو يقول بصوت مرتفع : مساء الخير يا دكتور . مالك ؟
فقال الشاب بهدوء وإن كان في الحق يستغث : أصبت ا
فحصه الدكتور بينين نافذتين وأسأبه تفتح الحقيقة ،
ثم قال : لها أنقلوزا

فقال بيأس : كلا ... لا أشكو زكاماً ولا صداعاً ...

— ولكنك لم تشك تباً أو فقدان شهية في هذه الأيام ...

أليس كذلك ؟

وتفكر الشاب قليلاً متحيراً ثم تمم قائلاً : حرارتي فظيمة ...

إني أشعر بالمرض شعوراً خفيفاً ...

— هل قست الحرارة ؟

فمجب كيف قاته ذلك ، وهز رأسه نفيماً ولاذ بالصمت ؛
فأبسم الدكتور بهجت ابتسامة ساخرة ، ودأ منه والترمومتر

في يده ، ثم وضعه في فمه وانتظر منبهة ، ثم أخذه ثانية ورفع
إلى مستوى عيني ، ونظر إلى وجه الشاب رافماً حاجبيه وقال
ببساطة : حرارتك طبيعية ... أنظر ا

وقرأ الشاب الترمومتر وهو لا يصدق عيني ، وجس خده
ثم قال : هذا عجيب ا خدي ما يزال ملتهباً . كيف هبطت الحرارة ؟
وأني الدكتور بساعة وطلب إليه أن يفك أزرار الجاكته
ففعل ؛ ووقع بصر الرجل على اللانلا فبدت على وجهه الدهشة
وصاح بسرعة وهو يشير إليها قائلاً : « انظر ا »

فأخى الشاب رأسه ناظراً إلى اللانلا فرأى فوق القلب
دائرة مسودة من أثر احتراق خفيف . فاستولت عليه الدهشة
وجلس في فراشه وهو يتساءل : « ما الذي صنع بي هذا ا »

فضحك الدكتور بصوت عال وقال : « ها أنت ذا تكشف
سحي جديدة يا دكتور ا » . وخطرت للشاب فكرة فالتفت
إلى المشجب وقفز من الفراش وأبجه نحوها ووضع يده في جيب
الجاكته الأمل متناولاً غليونه ، وغص الجيب بعينه فرأى
آثار التبغ الذي أكل البطانة وحرق القميص وأثر هذا التأثير

في اللانلا ، ووقف مرتبكاً ينظر إلى الدكتور بينين تسألان
الصنح ، وقد أحس بحرارة جديدة هي حرارة الخجل والارتباك
وبعد دقائق وجد الشاب نفسه وحيداً صرة أخرى ، وكان
ما تزال تملو شفتيه ابتسامة الارتباك والخجل ولكنه كان يحس

بنبضة وسلام ، وكان قلبه يشكر الله الذي وهبه حياة صرة أخرى
وبر الشاب بوعدده واعتزم أن يكون إنساناً قبل كل شيء ،
وعاد إلى عمله تنبض في قلبه أشرف للمواطف وأنبها ، وكان
يظن أنه سيصمد للتجارب لا يتكص على عقبيه مهما امتد به الزمن ،
ولكن وأسفاً إن انقضاء الليل والنهار ينسى ، ومن يتغير

في الدنيا يذهل عن نفسه ، وللحياة جلبة تبتلع سمات الضمير ،
فقد أخذ يتنامى عنته ووداده ووعدده حتى نسي ولم يمد يده
إلا عمله ومستقبله وآماله وأطاعه ، ثم ارتد إلى ما كان عليه ،
وكانت تلك الأيام القلائل في حياته كهدهو البحر الذي يصفو
وبرق حتى يشف عن باطنه ثم لا يلبث أن تهيج الرياح والمواصف

فيرخي ويزيد وتملو أمواجه كالجيال . ولعله لا يذكر هذه الحادثة
الآن إلا كدعابة يتندر بها ويقصها على صبه إذا دعا داعي الحديث
أو السمر ا

يجب محفوظ